مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 19 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2023 الصفحات 113- 122

الأنا وجراحات الذّاكرة في الرواية الجزائريّة المعاصرة

رواية "أنا وحاييم" للجبيب السايح أنموذجا

The Igo and the Wounds of Memory in Contemporary Algerian Fiction: "Ana Wa Hayim" by Habib Said as a Model

جمعة مصاص[1]،*

[1] جامعة عباس لغرور/ خنشلة (الجزائر)، messasdjema@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/07/25 تاريخ القبول: 2023/09/27

الملخص:

يقوم هذا البحث على طرح جراحات الذاكرة عبر محاورة الذات في علاقتها بالآخر الجزائري اليهودي الذي يمثل جزءا من النسيج البشري والثقافي والاجتماعي للهوية الجزائرية.

وتتأسس إشكالية المقال حول جملة من الأسئلة، أهمها: كيف أسهم تواشج العلاقة بين الشخصيتين الجزائرية واليهودية في تجاوز جراحات الذاكرة؟ وإلى أي مدى سعت الرواية لإعطاء فرصة لإعادة قراءة الثورة التحريرية بوصفها حدثا تاريخيا.

الكلمات المفتاحية:

الأنا؛
الذاكرة؛
الرواية؛
أنا وحاييم؛
جراحات؛

ABSTRACT:

This research focuses on exploring memory narratives through internal dialogue concerning the Algerian-Jewish "other," an integral component of the human, cultural, and social tapestry shaping Algerian identity. The key issue addressed in this article revolves around several questions, with the most significant ones being: (a) How did the interaction between Algerian and Jewish figures contribute to navigating memory narratives? (b) To what extent does the novel provide an opportunity for a reinterpretation of the liberation revolution as a historical event?

Keywords:
Ego,
memory,
novel,
me and Haim,
surgeries,

* جمعة مصّاص

مقدمة:

سعى الخطاب الروائي العربي ما بعد الكولونيالي من خلال نصوصه الإبداعية إلى إبراز الوعي بالاختلاف وتقبل الآخر، ومد جسور ومساحات للتواصل مع الآخر بعيدا عن الرهانات والايديولوجيات المسبقة.

عملت رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح على تحسين صورة اليهود في المخيال الشعبي الجزائري من صورة قاتمة وسيئة وانطباعه بالبخل واللؤم ...الخ إلى محاولة إقناع المتلقي بوجود الآخر المختلف بهويته الجزائرية وهو اليهودي الجزائري الذي يمثل جزءا هاما من النسيج البشري والثقافي والاجتماعي للهوية الجزائرية؛ أين تجاوزت الرواية الزمن الثوري –الذي تمثله ثورة التحرير الجزائرية– واتكأت فقط على الظروف والأحداث التاريخية والملابسات، وجعلت منها مجرد خلفية تاريخية لطرح جراحات الذاكرة عبر محاورة الذات والتنبيه إلى أن ما يعضد أي ثورة؛ هو الوعي بالاختلاف وتقبل الآخر؛ وهذا ما تجسده الصداقة المتينة التي جمعت بين أرسلان حنيفي وهو مسلم جزائري وبين حاييم بنميمون وهو يهودي جزائري حامل للجنسية الفرنسية.

1– الشخصية اليهودية في الرواية بين الواقعية والخيال:

نزعت الرواية العربية الجزائرية المعاصرة إلى رصد الواقع وملامسة أبرز إشكالاته التي أفرزها الاستقلال، وكانت لها تداعياتها المباشرة وغير المباشرة على واقع البلاد والعباد.

هي تنجز ذلك بكثير من الجرأة في ملامسة الواقع السياسي لجزائر الاستقلال وفضح انحراف السلطة الحاكمة.

جاء تنميط صورة الشخصية اليهودية في المخيال العربي بفعل عوامل تراثية دينية متنوعة؛ فجاءت صورة اليهودي في قصص التراث الديني قائمة على الغدر وقتل الأنبياء ومعاداة المسيحية والغدر بنبيها ثم تموقعت في تفرغ اليهود لحبك الدسائس والمؤامرات للإيقاع بالإسلام والمسلمين. ويذهب عادل الأسطة إلى أن صورة الذات والآخر غدت من المواضيع المفضلة في الأبحاث الأكاديمية والملتقيات الدولية، ويذكر أن تناول صورة اليهودي في الأدب العربي بشيء من التنميط كان سائدا في أعمال الرواد كتوفيق الحكيم ويحي حقي وسهيل إدريس والطيب صالح[1].

ثم ما لبثت أن تغيرت ملامح صورة اليهودي لتأخذ ملامح حيادية تنحو نحو الايجابية كما هو الحال في رواية "عائد إلى حيفا" 1969 لغسان كنفاني، والتي صور فيها تألم امرأة يهودية حين رؤيتها لرمي طفل فلسطيني في الشاحنة من طرف عساكر اليهود، وقد ذكرها المنظر بما فعله النازيون بأخيها.

وسرعان ما بدأت صورة اليهود أن تماهت في الحيادية إلى درجة عدم تمييزهم عن الآخرين إلا بمهنتهم كما في "رحلة بالدسار" لأمين المعلوف و"أرض السواد" لعبد الرحمن منيف.

وبقيت صورة اليهودي في الكتابة الروائية العربية في القرن الماضي– في جلِّها– رهينة النظرة الصهيونية حيث يصفهم على سبيل المثال عباس محمود العقاد على أنهم "أناس متعصبون لا يقنعون بما دون السيطرة على العالمين، تصديقا لوعد إلههم القديم الذي يعجبهم بأن يسمى بربّ الجند"[2]

ومع مطلع الألفية الثالثة، أخذت صورة اليهودي تجنح نحو الايجابية، فقد تم تصويرهم كجزء لا يتجزء من المجتمع الذي ينتمون إليه ويتعايشون مع عاداته وتقاليده، بل بدأت شخصية اليهودي تظهر نموذجا إنسانيا متواشج

العلاقات مع النماذج الأخرى المكونة للمجتمع الذي تعيش فيه، فهي نماذج إنسانية متعددة، تعشق وتعمل وتنجح وتفشل، تغدر وتتآمر، وتحلم بوطن يكون أفرادها فيه الأغلبية، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر؛ روايتي "يهود الإسكندرية" لمصطفى نصر و"آخر يهود الإسكندرية" لمعتز فتيحة.

كما نزعت الرواية نحو الايدولوجيا في هذه الفترة، و"هذه الايدولوجيا في النظرة للآخر معروفة بوظيفتها الإدماجية للجماعة أو المجتمع أو الثقافة" [3]؛ في تسويق واضح لقضية التسامح بين الأديان وبين الشعوب لمحاولة طي ورقة الماضي، ولا نبالغ إذا قلنا أن قضية التسامح هنا قضية شائكة ترزح بالكثير من الحمولات خاصة إذا اعتبرنا أن " التسامح هو أن توطن نفسك على قبول الآخر وهو يحمل أفكارا لا تتفق مع أفكارك، وترى هذا الاختلاف تعبيرا عن طبيعة الحياة والمجتمع والأشياء"[4].

وهذا مهدت صورة اليهودي "حاييم" لفكرة تسامح الأديان، ولفكرة تقبل الآخر الجزائري مهما كانت ديانته ومهما كان توجهه الاديولوجي؛ حيث "لم يكتب السائح عن صورة اليهودي بل عن الجزائري الآخر، الذي هو جزء من التركيبة البشرية والاجتماعية والثقافية التي تشكل في تركيبها الهوية الجزائرية؛ صورة اليهودي في رواية السائح بريئة من أي حمولة إيديولوجية قد تربطها بالايدولوجيا الصهيونية، أو بمشروع الكيان الاسرائيلي، فحاييم في الرواية رفض السفر مع حبيبته إلى "أرض الميعاد" في فلسطين، لأن بلده هو الجزائر؛ إنّ موقفا كهذا جعل من شخصية حاييم منسجمة مع موقفها من الاستعمار ومن الظلم الاستعماري، لهذا فإن رفضه للسفر إلى فلسطين هو نابع من موقفه إزاء أي شكل من الاستيطان وسلب حقوق الآخرين"[5].

تنهض رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح• على إعادة الاعتبار للذاكرة التاريخية التي حرفتها قراءة أحادية وغيرت مجراها؛ من خلال التأريخ للمقاومة ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر ومشاركة اليهود في مواجهة الفرنسية أثناء الحرب التحريرية الجزائرية.

ولا نبالغ إذا قلنا أن صراع السلطة والشعب، الأنا والآخر، الائتلاف والاختلاف..الخ، من أهم الثيمات التي قامت بإعلائها رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح من خلال إبراز صورة الجزائري الآخر(اليهودي) الذي يمثل جزءا هاما من النسيج البشري والثقافي والاجتماعي للهوية الجزائرية؛ أين تجاوزت الرواية الزمن الثوري –الذي تمثله ثورة التحرير الجزائرية– واتكأت فقط على الظروف والأحداث التاريخية والملابسات، وجعلت منها مجرد خلفية تاريخية لطرح جراحات الذاكرة عبر محاورة الذات والتنبيه إلى أن ما يعضد أي ثورة؛ هو الوعي بالاختلاف وتقبل الآخر؛ وهذا ما تجسده الصداقة المتينة التي جمعت بين أرسلان حنيفي، وهو مسلم جزائري وبين حاييم بنميمون وهو يهودي جزائري حامل للجنسية الفرنسية.

2– أنا وحاييم:

الأنا في الأدب، مؤسسة قائمة بذاتها، و"هي عندما تتصدر الكلام لها جلبة كبر وخيلاء، وتكون بؤرة تشع منها إرادة فردانية ورغبة بالكمال، وهناك قرينة تلازمها هي العزلة والوحدة"[6].

تثير رواية "أنا وحاييم" بعمق وجرأة قضية شائكة، تمثل أحد الطابوهات التي يتهرب الكل من الخوض فيها، وهي إعادة النظر في تاريخ ثورة التحرير الجزائرية، والذي لم يُطرح بموضوعية سواء على الصعيد التاريخي أو الإبداعي، وبقي بنظرة أحادية واحدة لا تقبل الرأي الآخر.

يحيل الحبيب السايح في رواية "أنا وحاييم" ذاكرة الجزائريين زمنين زمن الثورة وبدايات الاستقلال، يحرك فيهما الحبيب السايح شخوص روايته عبر ما يشبه السرد الذاتي للأنا (أرسلان) الذي يكتبه عن نفسه وعن صديقه حاييم؛ وهو يتذكر باسترجاعات طويلة الماضي، مختارا شخصية يهودية جزائرية، في محاولة منه لإعادة مد جسور التواشج بين الجزائريين بمختلف مشاربهم، في إلحاح واضح لإعادة الاعتبار لفئة من الشعب الجزائري تم تغييبها نتيجة بفعل السياسة والايدولوجيا، رغم كونها جزائرية حتى النخاع، وتشكل جزءا لا يتجزء من النسيج الاجتماعي الجزائري؛ فيهود الجزائر شكلوا جزءا لا يستهان به من النسيج البشري الجزائري، وكانوا يتكلمون اللغة ذاتها ويمارسون الحياة الجزائرية بكل تفاصيلها.

تنقسم رواية "أنا وحاييم" من حيث تركيبها إلى عدة مقاطع أساسية:

1 – المقطع الأول: وهو استرجاع للذكريات من 1944 من سعيدة إلى معسكر.

2 – ما أبعد جامعة الجزائر.

3 – 1954، ليلة عيد الأموات الحمراء.

4 – ليلة ثلج في الجبل.

5 – 1962 نعم ! لا!

6 – كفرحة عابرة.

7– يوم للخيبة، يوم للرحيل.

8– 1965 بوجع الانكسار والفقد.

تتواشج فيما بينها لتشكل لوحة من الفقد وترميم الذاكرة، يعود بها الأنا "أرسلان" إلى سنة 1944، وبالضبط في مدينة "سعيدة" في الجزائر، التي عاش فيها طفولته مع رفيقه "حاييم".

اليهودي. وبحكم أن أسرتيهما ميسورتين مقارنة بعامة الشعب الجزائري فقد التحقا كليهما بإحدى المدارس الفرنسية، يقول أرسلان: "ثلاثة وعشرين زميلا لنا من الأوروبيين والأقدام السوداء..• وينظرون إلينا، أنا وحاييم، نظرة أهل المدينة إلى الريفيين، وكانوا قد رتبونا بقوة أحكامهم المسبقة ضمن خانة الأنديجان– تلك كانت نظرة الأقدام السوداء والأوروبيين جميعا إلى غيرهم من الأهالي في البلد كله، فدليلهم بالنسبة إلى حاييم بنميمون، أنه لا يزال يستعمل اسما يجب على عائلته أن تغيره باسم أوروبي، كما فعلت ذلك عائلات من اليهود المستفيدين من قانون التجنيس، أما اسم ارسلان حنيفي فيحمل في أصوات حروفه دلالته على صفته الاجتماعية"[7].

إن هذا الارتباط القوي بين ارسلان وحاييم، أزعج المدرسين يقول مسيو ويل محذرا حاييم: "ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي

درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك"[8] فرد عليه ارسلان، ببداهة: "لا اشعر أني فرنسي، وارسلان مثل أخي"[9].

وهكذا تبدأ الرواية من دخوله إلى البيت الذي كانت تقطن فيه أسرة "حاييم"، فيمرُّ شريط الذكريات، ويبدأ بسرد أحداث حياةٍ كاملةٍ، عاشها الاثنان برفقة بعضهما البعض، دون أن يعيق نموَّ هذه الصداقة وعمقها أن الأوّل مسلم والثاني يهودي.

"وقفتُ، على الرصيف المقابل، وقفةً لم أقفها من قبل، محزون الخاطر، أمام دار حاييم تبدو ساكنة مثل كائن تحجّر، ملتفّة على فراغٍ بات يسكنها منذ أن أطاح الدهر، قبل ثلاثة أشهر، بآخر أهلها العابرين. تقدّمتُ. عند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاماً كي نتوجّه معاً لأوّل مرّةٍ إلى مدرسة جول فيري (...) ثم دخلت فانتابني مرة أخرى شعور بأن السكون قد يكون بهذا الثقل الذي ينوء به الرواق"[10].

يستعيد "أرسلان" نشأته مع صديقه في مدينة سعيدة، ودراستهما الابتدائيّة فالثانويّة. يحكي عن عائلتيهما وحكايات أفرادها، وعن التجارب التي مرّا بها في مراهقتهما ويفاعتهما، وصولاً إلى الدراسة الجامعيّة حيث ينتقلان إلى الجزائر، فيقرّر الأوّل دراسة الفلسفة، والثاني دراسة الصيدلة.

تصوّر الرواية ما تعرّض له الجزائريّون أيام الاحتلال الفرنسي من تمييزٍ عنصري، إذ يطلق الفرنسيّون على أبناء البلد كلمة "الأنديجان" وهي صفة محمّلة بالاستعلاء عليهم، وفي فترات دراستهم يعاني الصديقان من هذا التمييز، على الرغم من أن والدي "حاييم" تجنّسا بالجنسيّة الفرنسيّة، تبعاً لقانونٍ كان يسمح لهم بذلك آنذاك، وحين يسأل الابن أباه عن سبب رغبته بالجنسيّة، يجيبه الأب بأن ذلك ردّ فعلٍ لما تعرّض له أجدادهم أثناء الحكم العثماني، الذي اعتبر اليهودَ ذميّين، وفرض عليهم الجزية... غير أن العائلة لم تبدّل اسم الابن باسمٍ أوروبي كما فعلت عائلات اليهود التي استفادت من قانون التجنيس نفسه، وهذا ما جعله دوماً يرى النزعة العنصريّة من قبل الفرنسيين، ومن دخل أرض الجزائر من جنسيّاتٍ أخرى، مثل المالطيّة والإيطاليّة والإسبانيّة أيام الاحتلال.

"كانوا في غالبيتهم، خاصّة المحظيين منهم بالنظام الخارجي، ينظرون إلينا، أنا وحاييم، نظرة أهل المدينة إلى الريفيّين. وكانوا، لاسمينا، قد رتبونا بقوة أحكامهم المسبقة، ضمن خانة الأنديجان –تلك كانت نظرة الأقدام السوداء والأوروبيين جميعاً إلى غيرهم من الأهالي في البلد كلّه– فدليلهم، بالنسبة إلى حاييم بنميمون، أنه لا يزال يستعمل اسماً كان يجب على عائلته أن تغيّره باسم أوروبي"[11].

ويتدرج الشابان في الدراسة بتفوق منقطع النظير، فيحصدا المراتب الأولى عن جدارة واستحقاق أصبحا شابين، توسعت مداركهما، أصبحا مطلّين على التمييز العنصري الذي يمارسه المستعمر الفرنسي ضد الشعب الجزائري، كما طالعا تاريخ النضال الجزائري ضد المستعمر الفرنسي منذ الأمير عبد القادر الجزائري، وأدركا أن المقاومة مستمرة حتى تحرير الجزائر، وأنها تمر بمراحل مد وجزر.

تزداد مسألة اليهود تعقيدا في الجزائر، فهاهي تعلن دولة إسرائيل على ارض فلسطين في 1948م، ويبدأ كثير من اليهود بالهجرة للدولة الوليدة آو إلى أوروبا، ''كولدا'' حبيبة حاييم تهاجر إلى الكيان الصهيوني مختلفة مع حاييم وتاركة في نفسه جرحا لن يندملَ، أخبرها أنه جزائري وهذه بلده ولن يغادره. "قلت له إلى أين تريدونني أن أغادر؟ هذا وطني هنا ولدت وولد آبائي، وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض، وفيها أدفن مثل آبائي، فلسطين ليست أرضي ولا وطني"[12].

كبر وعي ارسلان وحاييم على مستوى الجامعة، وبدأت تختمر في ذهنيهما وفي الواقع إرهاصات جولة ثورة جديدة تعمل لتحرير الجزائر، ظهرت منظمة الجبهة الوطنية الجزائرية كعمل سري مسلح، يعمل لمقاومة الفرنسيين وإخراجهم من الجزائر والاستقلال.

سيكون ارسلان جزء من الجبهة وخلاياها السرية، ويكون حاييم صديقا للثوار ويقدم لهم المساعدة الطبية والدوائية. سيتخرج ارسلان وحاييم من الجامعة، ارسلان سيلتحق بالثوار في الجبال ويبدأوا بالنضال ضد الفرنسيين، وسيفتح حاييم صيدلية ستكون موقعا طبيا يخدم الثوار كل الوقت.

بدأ التحضير للثورة الجزائرية بشكل سري، بناء الخلايا والتدريب والتسليح، سيكون ارسلان واحدا من خلية ثورية يناط بها بعض الأعمال المسلحة، ويبدأ العمل المسلح، وبعد فترة ينتقل العمل للجبال، وينتقل معهم ارسلان، ويبقى على اتصال مع حاييم الذي أيّد الثورة ودعمها عبر صيدليته ودوائه..

استمرت الثورة لسنوات وانتصرت وعاد الثوار من الجبل إلى المدن، عاد ارسلان مع حبيبته الثائرة زليخة التي كانت معه بالجبل، تزوجا بعد حين، ثم تبوأ موقع رئيس بلدية مدينته سعيدة، وكان نموذجا للثائر الذي تحول للعمل لخدمة الناس بعد استقلال الجزائر، وكان حاييم معه ومعينه كل الوقت. لكن حلم الثورة ببناء جزائر حرة مستقلة عكّرهُ بداية هيمنة بعض الانتهازيين المنتمين إلى الثورة والذين بدؤوا يستغلون ماضيهم ومراكزهم ومسؤولياتهم العسكرية لمصالحهم الخاصة وهو ما جعلهما في حالة إحباط ومعاناة.

مع ذلك سرعان ما كلّف ارسلان أن يتحول للتدريس في مدينته، كان سعيدا بهذه المهنة الجديدة بعد طرد المستعمر وتجاوز التمييز العنصري.

وتنتهي الرواية في عام 1966م بعد أن تم إسقاط الرئيس المدني للجزائر أحمد بن بلة وتبدأ هيمنة العسكر على الجزائر. في إشارة صريحة لمعاناة الجزائر مع الحكم العسكري الاستبدادي عبر عشرات السنين.

3- الأنا وجراحات الذاكرة:

إن الوهن الذي حلّ بالأنا على المستوى الحضاري، يجعلنا نعيد النظر في علاقتنا بالآخر، وفي التاريخ الذي كُتب برواية أحادية لا تقبل التعدد والازدواج حيث توظيف ضمير المتكلم "أنا" يحيل إلى لون من "التجريب الروائي... ويجعل الرواية قريبة من السيرة الذاتية، إلا أنه ارتداد إلى ضروب الراوي العليم، لأن المؤلف يتدخل بصورة مباشرة في سير الأحداث، ويعلق على ما يجري، ويتطفل على شخصياته، وقد يعد بعضهم هذا الضرب من الكتابة رواية مقالة أدبية اجتماعية، أو رواية مضادة"[13].

تبرز رواية "أنا وحاييم" للروائي الجزائري الحبيب السايح نموذجا إنسانيا، متداخل العلاقات، تنطلق فيه الرواية، من صداقةٍ فريدةٍ جمعت بين اثنين هما "أرسلان بن القايد و"حاييم بنميمون"، منذ طفولتهما بشقاوتها وشيطناتها، وشبابهما والتجارب التي عاشاها، إلى مرحلة ما بعد استقلال الجزائر.

تؤرّخ الرواية للمقاومة ضدّ الاحتلال، ولمشاركة اليهود في مواجهة الفرنسيّين، لكن بعد حصول الاستقلال يُنعت حاييم باليهودي، ويُطالب بالرحيل مثل باقي الفرنسيين والأقدام السوداء، لكن الأخير رغم كلّ الضغوطات يصرّ على البقاء في بلده الجزائر التي لا يرى بلدا آخر له غيرها.

يستعيد ارسلان جراحات الذاكرة ويستحضر شتات ماضيه النضالي بمعية صديقه حاييم زمن الثورة التحريرية التي وقفا فيها إلى جانب بعضهما في أحسن وأحلك الظروف.

ولكن ما أن تحقق الاستقلال حتى تغيرت الأمور وكبر لدى الصديقين الإحساس بالاغتراب والتهميش، وما فتئت أن أصيبت الذاكرة بالارتجاج...ارتجاج لما كان ولما سيكون..

ثم بدأ يتأمل ما طرأ على البلد من تغيرات وتحولات، كانت إيذانا لبدء معالم حياة جديدة، هي حياة لاستقلال..

لقد وجد نفسه محاصرا بجراحات الذاكرة في واقع غريب، يعيش تحت وطأة الذكريات التي تضخم معاناة حاضره وتعذبه، فحنين الثورة لا يزال نابضا داخله "في الثاني من شهر مايو كان علي أن أقدم أمام هيئة العمالة التي ترأسها بدل عاملها مسؤول سياسي عائد من وراء الحدود الغربية غداة إعلان الاستقلال، سبق أن نصبني مفوضا للبلدية، حصيلة لم أكن أتوقع أن يخلق في نفوس الحاضرين بقاعة الاجتماعات ارتباكا، لهول الفراغ الكبير الذي بدا شده في وقت قصير أمرا مستحيلا، انطبع على ردودهم في المناقشة المحتدمة التي رفع خلالها المسؤول السياسي يديه معا من أعالي المنصة، وعلى يمينه عامل العمالة وعلى شماله مساعداه، وطلب الهدوء ثم راح يرطن رطنا عن تحويل ج.ت. وإلى حزب خلال مؤتمرها المنعقد قبل أسابيع"[14] ثم أردف قائلا: "وإنه لمن دواعي سعادتي ومن عظيم الشرف أن أكون مسؤوله في هذه العمالة"[15]، ناظرا إلى ارسلان نظرة تحذير.

لقد شاهد ارسلان مظاهر انحراف الثورة عن مبادئها بعد أن تحولت دماء الشهداء إلى قصور ومصانع وسيارات ضخمة وعقارات راقية، في حين سرق الاستقلال أحلام المخلصين من قدماء المجاهدين وحكم عليهم بالصمت والتهميش والتقوقع في زمن أعليت فيه الانتهازية والوصولية.

قال مخاطبا زليخة: "لك كان تتصوري لغة مسؤول جهاز سياسي يطمئن بها من يراهم، أسفل منصته، صبيانا على أن ليس هناك ما يدعو إلى القلق لأن ما صدر من مفوض بلدية مثلي مجرد تقرير مادام هو يحمل في ذهنه نموذجا لتقارير على المقاس ترفع إلى هيئته العليا"[16].

يستبد الحزن بقلب ارسلان الذي رسم أملا زاهرا، لكنه سرعان ما مسخ وانحرف عن مساره،" وماذا كنت تنتظر من سياسة لا تتأسس على واقع حقيقي مرير وقاس ولا تقوم على غير العبثية"[17] .

وبنبرة استفزازية قال: –"هل فشلنا أيها السيد المفوض في حربنا؟

- الأمر يختلف.
- لا! لا اختلاف، فنحن أدرى"[18].

ولكن ارسلان يدرك أن البلد قدم" ضريبة من دم التحرر من السيطرة، فكيف يأتي الآن من يريد أن يبسط عليه تسلطه"[19].

في شهر جوان تم الانقلاب على الرئيس ونزل العسكر إلى الشارع.[20] إيذانا بمرحلة عصيبة طالت مفاصل الثورة، "منذ الإعلان عن الانقلاب العسكري الذي أطاح برئيس الجمهورية الفتية في التاسع عشر من جوان–قبل احد عشر شهرا من الآن– لم أعد أقرا صحيفة واحدة...منذ إعلان الاستقلال، بسبب الفوضى والغموض والتزعم... فلا فائدة من إضاعة وقت مع تحليلات لا تجرؤ على قول حقيقة ما يترتب، عن الاستيلاء على السلطة بالقوة، من تبعات تضرب جوهر الحرية في الصميم"[21].

وتتعمق جراحات الذاكرة في كيان ارسلان بعد أن لمس حجم الانحراف الذي طال ثورة نوفمبر التي شكلت في بعدها الثوري التحرري أيقونة للحركات التحررية في العالم، ومصدرا للإلهام، خاصة وأن الأمور قد بدأت تأخذ أبعادا غير محسوبة، ففي غداة الاستقلال تغير كل شيء، يقول: "وها أنا، كمن يستيقظ من حلم.. وكان ذلك بارزا للعيان من الحركات القلقة، من الأحاديث الحذرة ومن النظرات المريبة، في المدرجات، في المكتبة ، وفي الساحة والكافيتيريا؛ في الشارع وفي وسائل النقل، كما في الساحات العمومية، ولكن أيضا لدى أعوان الأمن بالزى المدني، أولئك الذين لا يخفى على وجوههم التوتر ولا الاشتباه في نظراتهم، فوق الأرصفة، في الزوايا وأمام أبواب المقاهي والمطاعم والحانات وأحيانا داخلها، برغم تظاهرهم بما يُبعد عنهم أنهم من الأمن لأنهم مجرد عابرين أو جالسين أو واقفين يقرؤون صحيفة أو كتابا أو يشربون قهوة"[22].

هكذا يصطدم ارسلان بواقع ثورة تسللت بين يدي من صنعوها ليستولي عليها أناس لم يطلقوا رصاصة واحدة في ساحة المعركة.

ثم يتمتم قائلا: "لا بد من انتظار اتّضاح الرؤية ولو أني اعتقد أن العسكر لن يسلموا منذ اليوم، السلطة لغيرهم"[23]، فتبرز جراحات الأنا متواترة بجراحات الفقد والحزن إزاء واقع مثخن بجراح التخوين وسرقة الأمل.

مما سبق يمكننا القول أن رواية "أنا وحاييم" تندرج في إطار روايات مابعد الحداثة أو إعادة كتابة التاريخ والمسكوت عنه، وغيرها من المفاهيم التي ترتبط بالفكر ما بعد الحداثي، ومن جهة أخرى، يُسهم فيه التردد في تصنيفها ضمن أنواع الروايات التي انخرط فيها أصحابها ضمن عولمة الرواية، المرتبطة بالثقافة المعولمة التي توجّه الروائيين نحو هذا الموضوع أو ذاك استجابة للقيم العالمية الجديدة.

تشتغل الأنساق المضمرة على هذه المسافة بين الوعي واللاوعي وبما يسمح به فضاء الرواية، وأي تأويل واستظهار لما نعتقده نسقا مضمرا ينبغي أن يكون في النص ما يدل عليه ويسمح بالتعبير عنه، وإلا أصبح مجرد إسقاط، فنحن كقراء للنص، نكون في البداية أمام بنية لغوية، ينبغي في مرحلة أولى أن نرفع اللبس عن مفاصلها، وفي سياقها النصي، ثم نحاول استرجاع السياق بمفهومه الواسع، سواء ما تعلق بموضوع النص أو بظروف إنتاجه أو

بالخلفية التاريخية التي انطلق منها الروائي وما يشترك فيها مع الناقد، وحينها سيكون منطقيا ومن خلال عمليات استدلالية أن يقوم الناقد بتأويل النص استنادا إلى معطيات السياق الخارجي لفهم الأنساق المضمرة التي تشتغل داخل النص، والتي تكون قد تسربت إلى الروائي دون وعي أو بوعي منه إلى نصه.. ولذلك قد يتفاجأ الروائي أحيانا من تأويل الناقد وربما قد لا يعجبه التخريج، ولكن العمل الإبداعي حين يقدم إلى القراء يصبح ملكا لهم، وينبغي للمؤلف ألا يحاكم القارئ مثلما ينبغي للقارئ أيضا ألا يحاكم صاحب النص، حتى وإن امتلك الحق في تأويل النص الذي لا ينتهي.[24]

خاتمة:

يمكن القول في الأخير هذه السردية الموغلة في المثالية والطهارة الخالصة لشخصية اليهودي جعلتها شخصية خارجة عن المألوف، بكريزما غير مألوفة، ولعل تقديمها بهذا النمط لا يخدم إلا فكرة الكاتب التي سخر لها كل إمكانات السرد؛ والمتعلقة بتغيير نظرة القارئ الجزائري للآخر/ اليهودي، وإن كان ذلك على حساب الموضوعية في رسم شخصية يمكن للقارئ أن يتقبلها فنيا.. وقدّم السرد كثيراً من المعلومات والأحداث التاريخية التي لا نعلم مدى صدقيتها، والاعتماد عليها كمصدر للتوثيق التاريخي، باعتبار أن الرواية لا تقدم الحقائق، بل تثير الأسئلة، وهو ما أدركه المؤلف جيدا، إذ سعى إلى إثارة المواضيع التي كان الاقتراب منها يعدّ من المحرمات خاصة وأن التاريخ الثوري للثورة الجزائرية ظل محل تجاذبات وصراعات إيديولوجية، لهذا انحصرت الرواية في الجزائر أمام خيارين: إما تبني و استعادة الرواية الرسمية للنظام، أو الكتابة بحس نقدي لأجل خلخلة المسلمات التاريخية وكسر الطابوهات ومعاملة الثورة الجزائرية كأي ثورة في العالم، فيها الجيد والرديء، وعلى أنها ثورة قام بها بشر لا ملائكة، وبالتالي فالخطأ وارد لا محالة في كل الأحوال.

المصادر والمراجع:

- الأسطة، عادل (2012)، " اليهود في الرواية العربية– جدل الذات والآخر" (فلسطين الرقمية،) فلسطين.
- تامر، فاضل (2013)، "المبنى الميتا– سردي في الرواية"، دار المدى للثقافة والنشر، لبنان.
- الحبيب، السائح (2018) ، أنا وحاييم، دار مسكيلياني/ تونس – دار ميم/ الجزائر، الطبعة الأولى.
- حميد عبد القادر: حوار مع آمنة بلعلى حول رواية أنا وحاييم، جريدة الخبر، 2020/12/29 متوفر على الموقع:

https://www.djazairess.com/elkhabar/679145.2020

- الداهي، محمد (2003)، "صورة الأنا والآخر في السرد" دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر .
- عباس محمود العقاد: الصهيونية وقضية فلسطين، تحرير: الحساني حسن عبد الله، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط ود.ت.

• عبد القادر الشيخلي: التسامح ضرورة أخلاقية واجتماعية وسياسية، مركز الملك بن عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 2017.

• لونيس بنعلي: أنا وحاييم للحبيب السائح، رواية عن الجزائر المتعددة:

تاريخ الزيارة 2022/06/18 الساعة 16.00. https://ultraalgeria.ultrasawt.com

الهوامش والإحالات:

[1] ينظر: الأسطة، عادل "اليهود في الرواية العربية- جدل الذات والآخر" (فلسطين الرقمية، 2012) ص1.

[2] عباس محمود العقاد : الصهيونية وقضية فلسطين، تحرير: الحساني حسن عبد الله، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط ود.ت، ص 5.

[3] الداهي، محمد "صورة الأنا والآخر في السرد" (مصر، دار رؤية للنشر والتوزيع، سلسلة السرد العربي، م6 " 2013).

[4] عبد القادر الشيخلي: التسامح ضرورة أخلاقية واجتماعية وسياسية، مركز الملك بن عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 2017، ص 10.

[5] لونيس بنعلي: أنا وحاييم للحبيب السائح، رواية عن الجزائر المتعددة https://ultraalgeria.ultrasawt.com تاريخ الزيارة 2022/06/18 الساعة 16.00.

• لحبيب السائح، كاتب وروائي جزائري، من مواليد عام 1950. له عدّة مجموعاتٍ قصصيّة، وعشر روايات، من أبرزها: "زمن النمرود"، "تلك المحبة"، "الموت في وهران"، "كولونيل الزبربر". ترجمت معظم رواياته إلى اللغة الفرنسيّة. فاز بجائزة الرواية من ملتقى عبد الحميد بن هدوقة بالجزائر عام 2003. وصلت روايته "أنا وحاييم" إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية عام 2019.

[6] صالح، زامل . تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ط1، 2003، ص 40.

• يقصد بالأولين الفرنسيون، وبالثانيين باقي الذين دخلوا أرض الجزائر خلال الاحتلال، خاصة ذوي الأصول المالطية والإيطالية والاسبانية لأنهم كانوا يلبسون جزمات سوداء.

[7] الحبيب السائح: أنا وحاييم، دار مسكيلياني/ تونس – دار ميم/ الجزائر، ، الطبعة الأولى، 2018 ، ص 24.

[8] الرواية، ص 34.

[9] الرواية، ص 35.

[10] الرواية، ص 54.

[11] الرواية، 24.

[12] الرواية، ص 162.

[13] تامر، فاضل "المبنى الميتا- سردي في الرواية" (لبنان : دار المدى للثقافة والنشر 2013) ص 13-14.

[14] الرواية، ص 286.

[15] الرواية، ص 286.

[16] الرواية، ص 286.

[17] الرواية، ص 287.

[18] الرواية، ص 287.

[19] الرواية، ص288.

[20] الرواية، ص 288.

[21] الرواية، ص 321.

[22] الرواية، ص 113.

[23] الرواية، ص 321.

[24] ينظر: حميد عبد القادر: حوار مع آمنة بلعلى حول رواية أنا وحاييم، جريدة الخبر، 2020/12/29 متوفر على الموقع 2020 https://www.djazairess.com/elkhabar/679145.